مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد الثامن ،العدد الرابع ،أكتوبر 2023، ص- ص166.-184

علاوة عمارة: بونة والتوجه الساحلي لبلاد كتامة من ق: 3-6هـ/9-12م: ترجمة لمقال:

Allaoua Amara: Bûna et la littoralisation du pays kutāma[1]

Allaoua Amara: Bûna and the coastline of the kutāma region

حسين بوبيدي (*)
جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري (الجزائر)
hocine.boubidi@niv-constantine2.dz

تاريخ الاستلام: 2023/05/ 05 **تاريخ القبول:** 2023/07/ 30 **تاريخ النشر:** 2024/01/ 23

الملخص

يدرس هذا المقال الازدهار التدريجي الذي عرفته الأنشطة الساحلية في بلاد كتامة، فبعد انتقال الثقل السياسي والاقتصادي لبلاد المغرب الشرقي إلى الداخل منذ الفتوحات الأموية تضررت المناطق الشمالية، التي استعادت منذ القرن 5هـ/11م استغلال الموانئ القديمة ونشطت المدن الساحلية التي توارت إلى الهامش في القرن الهجري الأول، وفي هذا السياق استرجعت بونة دورها كمنفذ بحري لتصدير السلع القادمة من مناطق واسعة في الداخل، وبسبب الأزمات التي ضربت المناطق الداخلية التي عانت من جفاف قاس تسارع ازدهار الأنشطة الساحلية في بلاد كتامة، وقد تعزز ذلك مع الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي صاحبت الحضور الهلالي، لكن هذا الازدهار سرعان ما تعرض للضغط الهلالي والهجمات المسيحية النورماندية فأدى إلى تراجع الأنشطة الاقتصادية في الجزء الشرقي من بلاد كتامة، أما الجزء الغربي فقد استفاد من طبيعته التضاريسية (وجود سلسلة جبلية ذات تضاريس وعرة) ليقوم بدور تجاري هام على سواحله.

الكلمات الدالة بونة، كتامة، الأنشطة الساحلية، التجارة، جيجل.

Abstrac:

This article studies the progressive prosperity of coastal activities in the Kutāma region. The transfer of the political and economic center from the eastern Maghreb to the interior of the country caused an unfavorable situation in the northern regions. It was not until the 11th century that the

[1]- نشر أ.د علاوة عمارة هذه الدراسة في:

Allaoua Amara, « Bûna et la littoralisation du pays kutāma », Le rôle des villes littorales du Maghreb dans l'histoire, RM2E - Revue de la Méditerranée édition électronique, Tome III. 1, 2016, p. 141-152.

* **المؤلف المرسل.**

old trading posts and towns that had not played a significant role in the first century of Islam in the Maghreb were developed. Bône regained its status as a maritime outlet for a vast hinterland. The crisis that hit the hinterland following successive waves of drought and especially the political and social instability caused by the Hilalian presence accelerated the process of coastalization of the Kutāma land. However, Christian raids and the Hilalian push led to a regression of economic activities in the eastern part of the Kutāma land. Benefiting from massive mountain ranges with rugged relief, the western part of the Kutāma region experienced a more significant coastalization.

Keywords: Bûna ; kutāma; the coastline, commerce, Jijel.

1. مقدمة:

أظهرت العديد من الدراسات أن إلحاق بلاد المغرب بالمشرق الأموي قد أدّى إلى توقف الأنشطة الملاحية على السواحل المغربية، وفي عدّة شبكات للتجارة المتوسطية؛ هذه هي النتيجة العامة التي توصل إليها المؤرخ البلجيكي هنري بيرين/ Henri Pirenne في عمله الشهير: **مُحَمَّد وشارلمان (Mahomet et Charlemagne)**، الذي نشر سنة: 1937[1]. لقد قاد هذا الرأي الذي يحمّل الفتح الأموي مسؤولية التدهور الاقتصادي لدول غرب البحر المتوسط؛ إلى نقاش تاريخي واسع في النصف الثاني من القرن العشرين؛ فعلى العكس من هذا الرأي؛ نجد إلياهو أشتور/Eliyahu Ashtor من خلال الاستناد إلى نشاط اليهود الردانيين أظهر استمرارية الشبكات التجارية في البحر المتوسط بعد الفتح الأموي[2]. تحول النقاش تدريجيا إلى دراسة الوضع الحضاري في نهاية العصر القديم الروماني، وبداية العصر الوسيط؛ وفي هذه النقطة فإن دراسة ريتشارد هودغس/Richard Hodges ودافيد ويتهوز/David Whitehouse في كتابهما المعنون: **مُحَمَّد، شارلمان وأصول أوروبا (Mohammed, Charlemagne and the Origins of Europe)**، تعيد النظر في النتائج التي خلص إليها هنري بيرين، وقد استندت هذه الدراسة إلى المعطيات التي وفرتها الاستكشافات والحفريات الأثرية التي أجريت في لوني/Luni بإقليم ليغوريا/ Ligurie (إيطاليا)، وفي قرطاج (تونس)، وأظهرت أن التطور الديمغرافي والاجتماعي منذ أزمة الإمبراطورية الرومانية في القرن 3م قد أدّى ببلدان غرب المتوسط إلى حالة من الانحطاط الشديد قبل الفتح الأموي بزمن طويل. وقد رأى بيار

غيشار/Pierre Guichard أن هذه النتائج المستندة إلى الحالة الإيطالية تبقى نسبية، ولا تعتبر بالضرورة ذات أهمية لفهم التطور العام لبلدان غرب البحر المتوسط. من جهة أخرى؛ تؤكد النتائج التي وفرتها المعطيات الأثرية في عدّة مناطق أن شبكات التبادل غرب المتوسط لم تكن على درجة كبيرة من النشاط لحظة الفتح الأموي[3]، ومع ذلك استنتج بيار غيشار أن التوسع الاسلامي وجّه ضربة قاضية للروابط التي كانت لا تزال قائمة بين أطراف غربي المتوسط[4].

تناول كريستوف بيكار/ Christophe Picard جانبًا أساسيًا مرتبطًا بهذا النقاش، ويتعلق بالملاحة في البحر المتوسط الإسلامي؛ في دراسته الموسومة بـ: **البحر ومسلمو الغرب في العصر الوسيط (La mer et les musulmans d'Occident au Moyen Âge)**، حيث يؤكد أن المدن الساحلية المغربية لم تتطور قبل القرن 3هـ/9م مع تأسيس البحارة الأندلسيين لمدينة تنس، ومع ذلك فقد أوضح أن بلاد المغرب لم تشهد انقطاعا في الأنشطة الملاحية بعد الفتح الأموي اعتمادا على سردية الفتوحات[5].

أشارت الدراسات الحديثة إلى تحول الأنشطة نحو المناطق الداخلية؛ مسجّلة حالة انقطاع في تنظيم الفضاء المغربي، وقد أدّى هذا التوجه بشكل خاص إلى تعزيز أهمية المدن الداخليّة على حساب المدن الواقعة على الساحل، ويمكن لوضعية ساحل بلاد كتامة أن توضح هذا الموقف من خلال الاستناد إلى أوصاف هذه السواحل في النصوص العربية. لأجل فهم ذلك؛ أرى أن تحديد هذا المجال؛ والتركيز على دراسة مراكز الموانئ مثل: بونة؛ يعدّ ضروريا لفهم ازدهار الأنشطة الساحلية بالمنطقة. فيما يتعلق ببونة؛ فقد صدر حول هذه المدينة العديد من الدراسات التي تتفاوت من حيث أهميتها. بعد كتابات العلامة البوني: أبو العباس أحمد بن قاسم التميمي البوني (ت: 1063هـ/1726م)[6]، نشر أرنست كاريت/ Ernest Carette سنة: 1838 مذكرة عنوانها: **مختصر تاريخي وأثري حول بونة وضواحيها (historique et archéologique sur Hippone et ses environs)**؛ والذي لم يتضمن تاريخ المدينة في المرحلة الوسيطية[7]، من جهته؛ نشر روني بوياك/René Bouyac سنة: 1892

دراسة عامة حول تاريخ بونة منذ الفينيقيين إلى غاية: 1830؛ حيث يرى أن ازدهار الأنشطة الملاحية للمدينة الوسيطية لا يتعلق إلا بنهاية العصر الوسيط، في سياق التوسع التجاري الغربي[8].

في سنة: 1934 نشر القبطان: ماترو/Maitrot كتابه الموسوم: **بونة العسكرية: أربعة وأربعون قرنا من الكفاح: من القرن 24 ق.م إلى القرن 20م (Bône militaire, 44 siècles de luttes du XXIVe siècle avant au XXe siècle après notre ère)**؛ وهو تاريخ عسكري عام لمدينة بونة منذ العصور القديمة، عمل المؤلف فيه على تبيان الدور الذي قامت به المدينة في الأحداث العسكرية التي كان لها علاقة بها[9]، وفي السياق ذاته؛ ألف إرون مارك/Erwan Marec كتابا حول التاريخ القديم لبونة انطلاقا من نتائج الحفريات الأثرية التي أشرف عليها[10]. من منظور التاريخ المحلي المفعم بالروح الوطنية تناول أحسن دردور ماضي بونة الوسيط من خلال كتاب عنوانه: **عنابة 25 قرنا من الحياة اليومية والكفاح (Annaba, 25 siècles de vie quotidienne et de luttes)**، لكنه لم يدرس التطور الذي شهدته سواحل المنطقة[11]. هذا الهاوي للتاريخ لا يعكس منهجه التطور التاريخي للمدينة. في هذا السياق بدأ سعيد دحماني سنة: 1973 سلسلة من المقالات حول تاريخ بونة ومواقعها الأثرية، حيث خصص بعض الأجزاء لميناء المدينة وقصبتها في العصر الوسيط[12]، وقد جمعت هذه الدراسات سنة 2002 في كتاب حمل عنوان: **من هيبون إلى عنابة: تاريخ تأسيس حاضرة (De Hippone à Annaba, histoire de la fondation d'une métropole)**[13]؛ عالج فيه تاريخ المدينة الوسيط بشكل مختصر.

نلحظ أن هذه الدراسات بشكل عام قد فصلت بين المدينة وبين المناطق الخلفية لها؛ وخاصة المجالات الواسعة من بلاد كتامة، ولذلك يبدو لي أن دراسة المنطقة بأكملها ضروري لفهم التطور التاريخي للسواحل وفهم مسار ازدهار الواجهة الساحلية لكتامة.

2. شريط ساحلي مهجور في نهاية العصور الرومانية القديمة:

في القرن 5م تم تقسيم الساحل الواقع بين بونة وبجاية بين ثلاث مقاطعات؛ نوميديا،

البروقنصلية، وموريطانيا السطايفية، وقد تميزت هذه الوحدات الإدارية الثلاث باستيطان مجموعتين هما: أَكُثَمَنِ/Ucutamani شمال سطيف وميلة، وسلاسن/Salassn شمال قسنطينة، وعلى الرغم من اختفاء الاسم القبلي الثاني، فقد تم تعريب الاسم الأول: كتامة، واستعيد لتصنيف سكان المنطقة الواقعة بين بونة وبجاية، رغم أن كلمة كتامة تضمنت المنطقة الواقعة بين قسنطينة وبجاية، ثم توسعت في نهاية العصر الوسيط لتشمل جميع الأراضي الواقعة بين قسنطينة وبونة، أي الأراضي السابقة لـ أَكُثَمَنِ/Ucutamani وسلاسن/Salassn، وهكذا أصبح مصطلح "بلد كتامة" تسمية جغرافية تشير إلى المناطق الواقعة بين الأوراس والبحر الأبيض المتوسط وبونة وبجاية. ويستند هذا التحديد إلى معايير لغوية بعد بدء عملية تعريب المنطقة، وفي القرن 8هـ/14م حدّد ابن خلدون مجالات كتامة ضمن هذه المناطق بما في ذلك قسنطينة وسطيف[14].

في كتابه الموسوم: **وصف العالم الروماني(Descriptio orbis romani)** يعدّد جورج القبرصي/Georges de Chypre أسقفيات إفريقيا البيزنطية في نهاية القرن 6 وبداية القرن 7م. وفيه تم ذكر بونة (هيبوريجيوس) على أنها المدينة الوحيدة الواقعة على سواحل ما سيعرف ببلاد كتامة لاحقا[15]. من جهة أخرى؛ فإن المدن الواقعة داخل بلاد كتامه مثل: قسنطينة، ميلة (Milev)، قالمة (Calama)، سطيف (Sitifis)، وتيجيس (Tigisis) كانت تهيمن على الجغرافيا الدينية لهذه المنطقة خلال العهد البيزنطي. لذلك تتموضع نوميديا بشكل متزايد نحو المناطق الداخلية من البلاد. هذا الموقف تؤكده روايات الفتوحات الأموية التي لم يذكر فيها سوى بونة خلال هذه الحوادث. من ناحية أخرى فإن المدن الداخلية من بلاد كتامة حاضرة في هذه الروايات؛ حيث يذكر أبو بكر المالكي (ت: 487هـ/1055م)، وابن الأثير (ت:

630هـ/ 1233م)، أن إقليم بونة كان بمثابة ملجأ للبربر الذين تحالفوا مع البيزنطيين عقب هزيمتهم في معركة سطفورة على يد القائد حسان بن النعمان سنة: 74هـ/693م[16].

3. سياسة السلطة وازدهار الساحل:

لقد تم تهميش الجزء الأكبر من الساحل بعد التخلي عن قرطاج كعاصمة لإفريقية، هذا النظام الجديد سيستمر نهاية القرن 1هـ/7م ومعظم القرن 2هـ/8م، ومع ذلك؛ فقد بدأت المقاطعة البيزنطية الإفريقية القديمة –والتي تم دمجها في مساحة أوسع–في التحول تدريجيا إلى مقاطعة ساحلية منذ نهاية القرن 2هـ/8م؛ إذ قام الأغالبة في القيروان بتطوير أسطول بحري سمح لهم بالسيطرة على الطرق البحرية وفتح صقلية. فيما بعد؛ غادر الفاطميون قلاعهم في بلد كتامة عقب إصلاح لاهوتي[17]، وانفتحوا على البحر المتوسط؛ حيث أسسوا عاصمتهم المهدية على الساحل، لتكون أول عاصمة إسلامية تقع على الساحل المتوسطي. في الحوض الغربي للمتوسط نجح الأمويون بقرطبة في تنظيم شبكة من الموانئ على طول السواحل الغربية، وقد ترجم التجار الأندلسيون هذه السياسة من خلال الحفاظ على حركة تجارية بحرية كثيفة بين شبه الجزيرة الإيبيرية والمغرب. وهكذا تأكد النشاط الساحلي لبلاد المغرب في نهاية القرن 3هـ/9م، وازدهرت بشكل تدريجي –على المستويين التجاري والعمراني–العديد من المدن المهمشة، أو التي تحولت إلى مدن ثانوية.

تؤكد الروايات المتعلقة بتأسيس الخلافة الفاطمية هذا الاتجاه؛ ففي فترة الصراع بين الإسماعيليين والأغالبة، تمردت قبيلة أوربة التي تشغل مجال بونة على الإسماعيليين، وبأمر من الداعي الإسماعيلي أبو عبد الله شن القائد منصور بن خليل الأوربي هجوما عبر البحر (نزلوا على مجاز المراكب) ضد المتمردين، وبعد النزول في بونة تم تقسيم القوات إلى ثلاثة أقسام؛ وقد نجحت في شن غارات على أوربة المنتشرة في فحص بونة[18]. يضاف إلى ذلك أن جامع

الأخبار الإسماعيلي اليمني إدريس عماد الدين (ت: 881هـ/1476م) في كتابه المعنون: عيون الأخبار وفنون الآثار؛ ذكر أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر في قرطبة، كان يرغب في تقديم دعم عسكري للثائر الإباضي أبو يزيد، ولهذا الغرض كلّف مُحَمَّد بن رماحس حاكم بجانة بقيادة أسطول محمل بالمقاتلين والأسلحة والمواد الغذائية ويفرغها في بونة، وقد وصل الأسطول إلى حائط بونة الذي يمكن ترجمته حرفيا بـ: سور بونة في سنة: 333هـ/945م[19].

يعود أول وصف لساحل بلاد كتامة إلى نهاية القرن 4هـ/10م للرحالة الجغرافي ابن حوقل الذي يذكر المدن الساحلية النشطة من طبرقة إلى بجاية؛ هذا الرحالة يذكر الموانئ والمراسي التالية: مرسى الخرز، بونة، جيجل، بجاية[20]. ومع أنه يشير إلى وجود العديد من المراسي؛ لكنه يكتفي بالإشارة إلى بعضها فقط؛ تتعلق الإشارتين بمرسى الخرز (القالة حاليا)، وبونة التي وصفت بالمدينة الجميلة والمتوسطة، وأنها ذات تقليد بحري قديم؛ ونصه:

"بونة مدينة مقتدرة، ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة (...) لها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح متوسطة (...) وفواكه وبساتين قريبة، وأكثر فواكهها من باديتها، والقمح بها والشعير في أكثر أوقاتها كما لا قدر له، وبها معادن حديد، ويحمل منه إلى الأقطار الغزير الكثير، ويزرع بها الكتان، ولها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة، ومن تجارتها الغنم والصوف والماشية من الدواب وسائر الكراع، وبها من العسل والخير والمير ما تزيد به على ما داناها من البلاد المجاورة لها"[21].

هذا الوصف لازدهار بونة يتكرر أيضا مع مرسى الخرز؛ حيث يشير المؤلف إلى صيد المرجان، وإلى أن المدينة تجارية بالأساس[22]. هذه الموانئ تمثل في الواقع جزءا من أحد المحاور الرئيسة للأنشطة الملاحية في البحر المتوسط والتي تمتد شرقا إلى برقة ومصر. ساعد الأندلسيون على تعزيز العلاقات البحرية في هذا الاتجاه، وبالإضافة إلى الخلافتين الفاطمية في المهدية

والأموية في قرطبة، فقد شارك هؤلاء الأندلسيون في تنشيط العديد من المدن الساحلية في المغرب الأوسط؛ مثل: تنس، الجزائر، مرسى الدجاج، بجاية، بونة، ومرسى الخرز، وقد تاجروا مع البربر في المناطق الساحلية والداخلية[23]؛ لذلك شكلت بونة منفذا بحريا لمناطق زراعية واسعة.

4. أنشطة ساحلية مؤكدة: ق: 5-6هـ/11-12م:

تزايد هذا النشاط البحري على سواحل المغرب الأوسط في القرن 5هـ/11م، حيث يزودنا الجغرافي الأندلسي عبيد الله البكري (ت: 487هـ/1094م) -الذي كتب وصفا للغرب الإسلامي-بصورة للسواحل المغربية؛ وبالنسبة لبلاد كتامة؛ فإنه يستحضر بالإضافة إلى الموانئ؛ مواقع الشحن والتفريغ (المراسي) باعتبارها نقاطا لانطلاق الخطوط البحرية، وهي من الغرب إلى الشرق: بجاية، سبيبة، جيجل[24]، الزيتونة، الخراطين، الشجرة، القل، سطورة، الروم، تكوش، الخروبة، ابن الألبيري، المنية، بونة، مرسى الخرز[25]. هذا الوصف يبرز تحولا ساحليا متزايدا في بلاد كتامة.

تقع بجاية على طرف الساحل الغربي لكتامة؛ والذي تميز بازدهار الأنشطة الملاحية بفضل الجماعة الأندلسية بالمدينة، وبالأخص لموقعها كمنفذ بحري للمنطقة الخلفية التي تمثل قلعة بني حماد مركزها[26]. استفادت بونة من نهرها الذي كان يستخدم كموقع لشحن السلع في فصل الصيف، واستطاعت أن تحظى بأهمية كبيرة تدريجيا. في شرق بجاية يصعب تحديد مكان مرسى سبيبة بدقة، لكن علاقته بالجزيرة الصغيرة: العافية؛ يسمح لنا بالقول إنه يوجد فيما يعرف اليوم بالعوانة غرب جيجل. وفي شرق بجاية أيضا استعاد ميناء جيجل نشاطه بفضل تصدير النحاس من جباله إلى إفريقية[27]. وبعيدا عن هذه المنطقة؛ ذكر البكري العديد من المراسي الواقعة غرب القل: مرسى الزيتونة، مرسى الشجرة، مرسى الخراطين، والقل، وقد

استخدمت جميع هذه المراسي كمواقع لتصدير الأخشاب من هذه المنطقة إلى إفريقية وربما نحو المشرق[28]. لقد تم ربط هذه المنطقة الغابية الواقعة غرب جيجل المأهولة من قبل البربر بالعديد من مدن إفريقية عبر البحر، كما أنها كانت المنفذ البحري الوحيد للمناطق الزراعية الخلفية عبر طريق ينطلق من القيروان ويصل إلى قسنطينة وميلة[29].

بين القل وبونة توحي أسماء المراسي بوجود تجار مسيحيين؛ حيث يقع مرسى الروم شرق ميناء سطورة قرب سكيكدة (تسكدة)[30]، وتجار أندلسيين (مرسى ابن الألبيري). تظهر هذه القائمة تركيزا أكثر للأنشطة الملاحية في الجزء الشرقي من بلاد كتامة بالمقارنة مع الجزء الغربي، وهذه المراسي تتموضع حول أكبر مدينتين ساحليتين في بلاد كتامة خلال هذه الفترة: بونة ومرسى الخرز؛ وقد شكلتا قاعدتي القرصنة المغربية خلال القرن 5هـ/11م، حيث نقرأ في نص البكري:

"مدينة بونة؛ مدينة أولية، وهي مدينة أقشتين [القديس: أغسطين] العالم بدين النصرانية، وهي على ساحل البحر من نشر من الأرض منيع تطل على مدينة سبوسي [سيبوس]، وتسمى اليوم مدينة زاوي، وبينها وبين المدينة الحديثة ثلاثة أميال، ولها مساجد وأسواق وحمام، وهي ذات ثمر وزرع، وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة. (...) وحول بونة قبائل كثيرة من البربر: مصمودة وأوربة وغيرهما. وأكثر تجارها أندلسيون، ومستخلص بونة غير جباية بيت المال: عشرون ألف دينار. وبشرقي مدينة بونة مدينة مرسى الخرز: فيه المرجان"[31].

بناء على ما سبق؛ شهدت بونة تجديدا لنسيجها العمراني بعد تأسيس مدينة جديدة على شاطئ البحر أسفل جبل إيدوغ على سفح تل صغير في النصف الأول من القرن 5هـ/11م. يفسر هذا الاختيار بالبحث عن موقع محصن وخصوصا مناسب للملاحة. يقع الميناء أسفل

المدينة، ويستفيد من المناطق الخلفية الغنية بالمنتجات الزراعية، والمأهولة ببربر مصمودة وأوربة. وقد حافظت بونة على علاقات تجارية مع الموانئ الأندلسية، وترك هؤلاء التجار بصمتهم على المدينة. وكانت مدن إفريقية هي الأخرى وجهة لتجار بونة لتصدير الحديد والمرجان بشكل خاص.

كانت بونة ومرسى الخرز تحت سيطرة سلطة القيروان في بداية القرن 4هـ/10م، وقد تم دمجهما في مجال سياسي واقتصادي أوسع؛ أي أفريقية الفاطمية ثم الزيريّة، وكانت إحدى جوانب هذا الدمج تتمثل في تنظيم القرصنة، ولهذا الغرض تم تأسيس دار صناعة السفن[32]، واستعمل الميناءان كنقطتي انطلاق للسفن التي تستهدف الإغارة على سردينا والسواحل الإيطالية، وبتعبير البكري: "تخرج الشواني غازية إلى بلاد الروم"[33].

5. تطور في الغرب، وتراجع في الشرق:

يتضمن وصف الجغرافي المسلم: الإدريسي الذي خدم ملك صقلية: روجر الثاني؛ والمؤرخ سنة: 548هـ/1153م إشارات حول سواحل كتامة وبلادها الداخلية؛ حيث استمرّ في القرن 6هـ/12م استخدام الموانئ التي ذكرها البكري في القرن السابق[34]، ونلحظ أن ميناء بجاية بعد أن كان قليل الاستخدام في القرن 4هـ/10م أصبح ذو مكانة مهمة في التجارة البحرية مع الموانئ الأندلسية بفضل الحضور القوي للجالية الأندلسية[35]، وقد ارتبطت أهميته بشكل أساسي بالنجاح التجاري في الفضاء الحمادي؛ لأن بجاية كانت –قبل تأسيس الدولة الحمادية–الميناء الخاص بالقلعة[36]، ومارست دور الوسيط بين الموانئ الأندلسية ومدن المغرب الأوسط. أصبحت بجاية عاصمة الحماديين بمثابة قطب المغرب الأوسط، وبسطت نفوذها على المناطق الداخلية لإقليم كتامة: سطيف، قسنطينة، باغاية، بسكرة، تبسة، دور مدين، تيفاش[37]. إلى الشرق من بجاية؛ يشير الإدريسي إلى وجود مراسي جديدة؛ مثل: متوسة،

المنصورية، مزغيطان[38]. يعتقد أن المرسى الأول مرتبط ببلدة سوق الاثنين الحالية المشهورة بإنتاج الجص؛ أما الثاني فهو حاليا ميناء الصيد بنفس موقع: المنصورية في بلدية: زيامة المنصورية؛ وهو ميناء المدينة الرومانية القديمة: شوبا. من جيجل إلى بونة؛ تعرضت الملاحة البحرية إلى الاضطراب بسبب الأسطول النورماندي الذي دفع السكان إلى ترك منازلهم خلال موسم الملاحة، يتعلق الأمر بثلاث مدن هي: جيجل، القل، وبونة. لكن هذه الاضطرابات لم تنه التوجه الساحلي للقسم الشرقي لبلاد كتامة، حيث ظهرت موانئ ومراسي جديدة، وعلى سبيل المثال؛ فإن مدينة جيجل سيصبح لها ميناءان –على غرار القل–مرتبطان بقسنطينة[39].

بعد بونة ومرسى الخرز وبجاية؛ عادت المدن القديمة للظهور من جديد على ساحل بلاد كتامة؛ مثل: جيجل والقل، وتركت بونة موقع الميناء القديم، ولدواعي أمنية ركّزت على الموقع الوسيط الذي يمكن الدفاع عنه بسهولة، وحافظت على نشاطها الزراعي والتجاري على الرغم من الغزو النورماندي، حيث نقرأ عند الإدريسي:

"مدينة بونة وسطة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، ومقدارها في رقعتها كالأربس، وهي على نحر البحر ، وكانت لها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح موجودة، وكان فيها كثير من الخشب موجود جيد الصفة، ولها بساتين قليلة وشجر ، وبها من أنواع الفواكه ما يعمّ أهلها؛ وأكثر فواكهها من باديتها، والقمح بها والشعير في أوقات الإصابات كما وصفنا كثير جدا، وبها معادن حديد جيد، ويزرع بأرضها الكتان، والعسل بها موجود ممكن وكذلك السمن، وأكثر سوائمهم البقر، ولها أقاليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها، وافتتحت بونة على يدي أحد رجال الملك المعظم رجار في سنة ثمان وأربعين وخمس مائة، وهي الآن في ضعف وقلة عمارة، وبها عامل من قبل الملك المعظم رجار من آل حماد،

وعلى مدينة بونة وبجنبيها جبل يدوغ، وهو عالي الذروة سامي القمة، وبه معادن الحديد التي ذكرناها آنفا"[40].

في مينائي: بجاية وبونة[41]، شاركت الجاليات الأندلسية بفعالية في تنشيط الحركة التجارية باتجاه إفريقية والأندلس[42]، وقد سيطر التجار والبحارة الأندلسيون بشكل كامل على الأنشطة البحرية في هذا الميناء[43]، ويعود هذا النجاح إلى دورهم منذ القرن 4هـ/10م في تصدير الحبوب من سهول وحقول المغرب الأوسط إلى موانئ الأندلس[44]، وقد حدث نفس التطور في ميناء الخرز؛ حيث استمر البحارة الأندلسيون والمحليون في استخراج وتسويق المرجان[45].

في القرن 5هـ/11م؛ ازدهرت الواجهة البحرية لبلاد كتامة بفضل البنية التحية التي أقامها التجار الأفارقة؛ حيث كانت مراسي: الشجرة والخراطين المستحدثة تستخدم لنقل الخشب من جبل الرحمن إلى دور صناعة السفن الإفريقية. علاوة على ذلك؛ أنشأ قاطعوا الأخشاب ورشات عمل هامة لتأمين إمداد المخازن في إفريقية بالخشب[46]، أما جيجل؛ وهي إحدى الموانئ الرئيسية لبلاد كتامة؛ فقد استخدمت لتصدير النحاس إلى إفريقية[47].

يظهر الكتاب الثاني للإدريسي؛ والمعنون: أنس المهج وروض الفرج، خريطة الطرق التجارية البرية ببلاد المغرب في القرن 6هـ/12م، ويتبين من خلالها أن بلاد كتامة كانت لا تزال تحتفظ بمجالات خلفية نشطة مرتبطة بالموانئ الرئيسية في إفريقية والمغرب الأوسط، وبالتالي كانت مناطق سطيف وقسنطينة لديها موانئ بجاية وجيجل والقل وسطورة كمنافذ بحرية[48]، في الفترة ذاتها؛ فقد عانت المدن الموجودة عند سفح جبل أوراس من التراجع نتيجة التواجد العنيف للقبائل الهلالية.

6. خاتمة:

إن انتعاش الأنشطة الساحلية في بلاد كتامة –مثل أغلب السواحل الممتدة بين تونس وسبتة–كان تدريجيا، وقد تسبب انتقال المركز السياسي والاقتصادي للمغرب الشرقي إلى الداخل في تضرر المناطق الشمالية، وكان يتعين الانتظار إلى غاية القرن 5هـ/11م لاستغلال الموانئ القديمة والمدن الساحلية التي لم تمارس دورا بارزا في قرن الإسلام الأول بالمغرب.

استعادت بونة وضعها كمنفذ بحري لمناطق داخلية واسعة، وسمح الحفاظ على التقاليد البحرية بتطوير أنشطة صيد المرجان في مرسى الخرز. تسارع ازدهار الأنشطة الساحلية في بلاد كتامة بسبب الأزمة التي ضربت المناطق الداخلية عقب موجات متتالية من الجفاف، وخصوصا نتيجة لعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي نتج عن التواجد الهلالي. ومع ذلك؛ تسببت الهجمات المسيحية والضغط الهلالي في تراجع الأنشطة الاقتصادية في الجزء الشرقي من بلاد كتامة، ونظرا لاستفادتها من سلسلة جبلية ذات تضاريس وعرة؛ فقد شهد الجزء الغربي نشاطا ساحليا أكثر أهمية.

7–المصادر والمراجع:

أ–المصادر:

1–ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني (ت:630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، نشر: مُحَمَّد يوسف الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003.

2–الإدريسي أبو عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (ت: 560هـ/1164م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، دار عالم الكتب، 1989.

3–––––––، أنس المهج وروض الفرج – قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان –، تح: الوافي نوحي، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007.

4–إدريس عماد الدين القرشي الداعي اليمني (ت:872هـ/1468م)، عيون الأخبار في فنون الآثار، أعده للنشر: فرحات الدشراوي، تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، 1979.

5-البكري أبو عبد الله عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت: 487هـ/1094م)، المسالك والممالك، تح: جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003.

6- البوني أبو العباس أحمد بن قاسم التميمي (ت: 1063هـ/1726م)، التعريف ببونة إفريقية بلد أبي مروان الشريف، عنابة، المجلس الشعبي البلدي، 2000.

7-الحميري أبوعبد الله مُحَمَّد بن عبد المنعم (ت:727هـ/1326م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، 1980.

8-ابن حوقل أبوالقاسم النصيبي (ت: بعد 367هـ/978م)، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1996.

9-ابن خلدون أبوزيد عبد الرحمن بن مُحَمَّد الحضرمي (ت:808هـ/1405م، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1969.

10-القاضي النعمان بن مُحَمَّد بن منصور بن حيون التميمي (ت: 363هـ/973م)، رسالة افتتاح الدعوة، تح: فرحات الدشراوي، تونس/الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع/ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.

11-المالكي أبو بكر عبد الله بن مُحَمَّد القيرواني (ت: 438هـ/1046م)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، ط2، تح: بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1994.

ب-المراجع:

12-عيبش يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب في ظل الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه، إشراف: مُحَمَّد البشير شنيتي، جامعة منتوري قسنطينة، 2007.

13- Billiard L., Vergnieaud, F., Balensi E., Les ports et la navigation d'Algérie, Paris, Larose, 1930.

14- Bouyac R., Histoire de Bône, Bône, imprimerie du courrière de Bône, 1891.

15- Carette E., Précis historique et archéologique sur Hippone, Paris, imprimerie lange lévy et compagnie, 1938.

16- Dahmani S., De Hippone à Annaba, histoire de la fondation d'une métropole, Annaba, Wilaya de Annaba, 2002.
17- Derdour H., Annaba, 25 siècles de vie quotidienne et de luttes. Menus appendice sur l'histoire générale du grand Maghreb, Alger, SNED, 1982.
18- Dominique Valérian : Bougie, port maghrébin :1067-1510. Rome, Ecole Française de Rome, 2006.
19- Maitrot C., Bône militaire 44 siècles de luttes du XXIVe siècle avant au XXe siècle après notre ère, Bône, imp : central A-M. Mariani, 1912.
20- Marec E., Hippone la royale : Antique Hippo Regius, Algérie, Direction de l'interieur et des beaux arts, 1954.
21- Picard Ch., La mer et les musulmans, Paris, Puf, 1997.
22- Pirenne H, Mahomet et Charlemagne, rééd : Paris, Puf, 1970.

ج- المقالات:

23- Amara A., « Les Fatimides et le Maghreb central : littoralisation de la dynastie et modes de contrôle des territoires», REMMM, 139(2016), p. 107-126.
24- Ashtor E., «Nouvelles réflexions sur la thèse de Pirenne. À propos d'une réimpression de Mahomet et Charlemagne », Revue suisse d'histoire, 20, 1970, p. 601-607.
25- Dahmani S., « La Kasba de Būna », in : Actes du 113e congrès des Sociétés Savantes, Strasbourg, 1988, IVe colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, vol. II, p. 491-511
26- Dahmani S., « Le port de Būna au Moyen Âge», in : Actes du 115e congrès des Sociétés Savantes, Avignon, 1990, Ve colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, p. 361-377.
27- Guichard P, « Les pays de la Méditerranée occidentale entre le Ve et le Xe siècles. Retour sur la problématique pirennienne», dans : éd. M. Hammam, L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge, Rabat, Faculté des lettres et sciences humaines, 1995, p.75-90.

8. الهوامش:

[1]- Pirenne H, Mahomet et Charlemagne, rééd : Paris, Puf, 1970, p : 111.

[2]- Ashtor E., «Nouvelles réflexions sur la thèse de Pirenne. À propos d'une réimpression de Mahomet et Charlemagne », Revue suisse d'histoire, 20, 1970, p. 601-607.

[3] - Guichard P, « Les pays de la Méditerranée occidentale entre le Ve et le Xe siècles. Retour sur la problématique pirennienne», dans : éd. M. Hammam, L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge, Rabat, Faculté des lettres et sciences humaines, 1995, p. 78.

[4] - ibid, p: 80.

[5] - Picard Ch., La mer et les musulmans, Paris, Puf, 1997, p. 7-20.

[6]– البوني أحمد بن قاسم التميمي، التعريف ببونة إفريقية بلد أبي مروان الشريف، عنابة، المجلس الشعبي البلدي، 2000.

[7] - Carette E., Précis historique et archéologique sur Hippone, Paris, imprimerie lange lévy et compagnie, 1938.

[8] - Bouyac R., Histoire de Bône, Bône, imprimerie du courrière de Bône, 1891, p. 27-42.

[9] - Maitrot C., Bône militaire 44 siècles de luttes du XXIV[e] siècle avant au XX[e] siècle après notre ère, Bône, imp : central A-M. Mariani, 1912.

[10] - Marec E., Hippone la royale : Antique Hippo Regius, Algérie, Direction de l'interieur et des beaux arts, 1954.

[11] - Derdour H., Annaba, 25 siècles de vie quotidienne et de luttes. Menus appendice sur l'histoire générale du grand Maghreb, Alger, SNED, 1982.

[12] - Dahmani S., « La Kasba de Būna », dans : Actes du 113[e] congrès des Sociétés Savantes, Strasbourg, 1988, IV[e] colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, vol. II, p. 491-511 ; idem, « Le port de Būna au Moyen Âge», dans : Actes du 115[e] congrès des Sociétés Savantes, Avignon, 1990, V[e] colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, p. 361-377.

[13] - Dahmani S., De Hippone à Annaba, histoire de la fondation d'une

métropole, Annaba, Wilaya de Annaba, 2002.

[14]- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1969، ج6، ص: 146؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، 1980، ص: 71.

[15]- يوسف عيبش، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب في ظل الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه، إشراف: مُحَمَّد البشير شنيتي، جامعة منتوري قسنطينة، 2007، ص: 77-78.

[16]- المالكي، رياض النفوس، ط2، تح: بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1994، ج1، ص: 49؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، نشر: مُحَمَّد يوسف الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، ج3، ص: 416.

[17]- لقد تم إدخال مفهوم دار الهجرة في الفكر الإسماعيلي لتبرير نقل مركز الطائفة من قلاع بلاد كتامة إلى الساحل الإفريقي. انظر:

Amara A., « Les Fatimides et le Maghreb central : littoralisation de la dynastie et modes de contrôle des territoires», REMMM, 139(2016), p. 110-114.

[18]- القاضي النعمان، رسالة افتتاح الدعوة، تح: فرحات الدشراوي، تونس/الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع/ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص: 214-215.

[19]- إدريس عماد الدين القرشي، عيون الأخبار في فنون الآثار، أعده للنشر: فرحات الدشراوي، تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، 1979، ص: 201-202.

[20]- ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1996، ص: 75.

[21]- المصدر نفسه، ص: 75-76.

[22]- المصدر نفسه، ص: 75.

[23] - 1 Cf. Picard Ch., La mer et les musulmans, p. 49-52.

[24]- هذا الميناء هو مرسى مكشوف محمي بواسطة رصيف يربط الصخور باليابسة، وهو في الأصل مستوطنة تجارية قرطاجية. انظر:

Billiard L., Vergnieaud, F., Balensi E., Les portset la navigation d'Algérie, Paris, Larose, 1930, p : 56-57.

[25]- البكري، المسالك والممالك، تح: جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، ج2، ص: 268-269.

[26]- المصدر نفسه، ج2، ص: 268.

[27]- المصدر نفسه، ج2، ص: 269.

[28]- المصدر نفسه، ج2، ص: 269.

[29]- المصدر نفسه، ج2، ص: 244-245.

[30]- يقع ميناء سكيكدة في أقصى الجزء الجنوبي من خليج طرفاه: رأس تسرا غربا، ورأس الحديد شرقا. انظر:

Billiard L., Vergnieaud, F., Balensi E., Les portset la navigation d'Algérie, p. 162.

[31]- المصدر نفسه، ج2، ص: 223-224.

[32]- المصدر نفسه، ج2، ص: 234.

[33]- المصدر نفسه، ج2، ص: 269.

[34]- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، دار عالم الكتب، 1989، ج1، ص: 273-274.

[35]- حول أهمية ميناء بجاية في التجارة البحرية انظر:

Dominique Valérian : Bougie, port maghrébin :1067-1510. Rome, Ecole Française de Rome2006.

[36]- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص: 52.

[37]- المصدر نفسه، ج1، ص: 260.

[38]- المصدر نفسه، ج1، ص: 274.

[39]- المصدر نفسه، ج1، ص: 268-269.

[40]- المصدر نفسه، ج1، ص: 291.

[41]- البكري، المسالك والممالك، ج2، ص: 55.

[42]- المصدر نفسه، ج2، ص: 137.

[43]- المصدر نفسه، ج2، ص: 128-129.

[44]- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 79.

[45]- البكري، المسالك والممالك، ج2، ص: 55.

[46]- المصدر نفسه، ج2، ص: 83.

[47]- المصدر نفسه، ج2، ص: 82.

[48]- الإدريسي، أنس المهج وروض الفرج – قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان –، تح: الوافي نوحي، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007، ص: 188-190.